جامعة تلمسان

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

دروس في نحو الاختلاف في المشرق العربي

ماستر 1/ سد 2 – لسانيات عربية

إعداد الأستاذ الدكتور عبد الجليل مصطفاوي.

****

المحاضرة1 : ظاهرة التأويل عند النحاة العرب الأوائل.

إن التأويل، مثل الافتراض والتأثيل، من الظواهر التي عرفها الدرس اللغوي عند أوائل النحاة العرب مثل الحضرمي، وعنبسة الفيل وابن العلاء ويونس والخليل وسيبويه والفراء وغيرهم. بل إنَّ صورا من ذلك وجدناها معتمدة عند المتأخرين من النحاة مثل ابن الأنباري والزمخشري وابن يعيش وابن الحاجب وابن هشام وابن عقيل وغيرهم . وهي نتاج تعامل النحاة مع المادة النحوية، ومحاولاتهم ردَّ بعض الشواهد(القاصية) إلى الأَقيِسة والقواعد والأحكام المستنبطة من لغة القرآن الكريم ومن كلام العرب وأشعارهم ولغاتهم.

ويعتمد التأويل على الاجتهاد وإبداء الرأي في تفسير ما بدا مُشكلا، أو خارجاً عن أساليب العربية وقواعدها. يقول الدكتور محمد خير الحلواني:" ويأتي– أي التأويل– بعد اكتشاف الأَقيِسة والضوابط؛ لأنه جنوح لإخضاع ظواهر اللغة التي تخرج على العرف والتقليد، للاطّراد والاستواء"[1].

إنه محاولة من النحاة لتقليب الظاهرة اللغوية على ما تحتمله من أوجه، أو هو التماس وجه لغوي مسموح، بحسب ما تقتضيه طبيعة اللغة العربية وأساليبها وخصائصها التعبيرية[2]. وإنَّما يتأتى ذلك لمن عرف خصائص العربية وخبر أسرارها وتنوُّعَ أساليبها وغنى تراكيبها.

---

[1]– المفصل في تاريخ النحو العربي، د.محمد خير الحلواني، ج1 ص148.

[2]– نفسه، ص150.

1-عبد الله بن إسحاق الحضرمي(تـ117هـ):

تذكر كتب التراجم والأخبار تعرض الحضرمي للشاعر الفرزدق بالنقد والتوجيه. فقد ذُكر أنه أنشده قصيدته التي منها قوله:

وعضُّ زمانٍ يا ابن مروانَ لم يدعْ من المالِ إلا مُسحتاً أو مجلَّفُ

فقال له الحضرمي: علام رفعت(مجلَّفُ)، فقال الفرزدق: على ما يسوؤك[3].

فراح الحضرمي يلتمس للرفع وجها من الوجوه، ولعل الأقرب هو أن تكون (أو) للاستئناف لا للعطف[4].

وحين أنشد الفرزدق في مجلس الحضرمي:

وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان بالألبابِ ما تفعلُ الخمرُ

قال له الحضرمي: ما كان عليك لو قلت: فعولين! فقال الفرزدق: لو شئتَ أن تسبِّح لسبَّحت، ونهض فلم يعرف أحدٌ في المجلس ما أراد بقوله ذلك. والمراد أنه لو نصب لأخبر أن الله خلقهما وأمرهما أن تفعلا ذلك، وإنما أراد: أنهما تفعلان بالألباب ما تفعلُ الخمر..فـ(كان) هنا تامة غير عاملة..وواضح أن الحضرمي أراد اختلاف المعنى و توجيه الرفع والنصب[5].

وحين ضاق الفرزدق ذرعاً به هجاه بقوله[6]:

لو كان عبدُ الله مولىً هجوتُه ولكنَّ عبد اللهِ مَوْلَى مَوَاليَا

وههنا أيضا لم يأبه الحضرمي بالهجاء، وإنما التفت إلى أن اللغة تقتضي أن يقول: مولى موالٍ. وذكر سيبويه أن ما فعله الفرزدق من باب ما أُخرج على الأصل للاضطرار[7].

2-عيسى بن عمر(تـ149هـ): وهو من تلامذة عبد الله بن إسحاق الحضرمي، من نحاة البصرة الأوائل، من طبقة أبي عمرو بن العلاء، وعنهما أخذ الخليل. من كتبه: الجامعُ والمُكمِّل. قال الخليل فيه[8]:

---

[3]- ينظر معاني القرآن للفراء، ج2ص182.

[4]- ينظر الإنصاف في مسائل الخلاف لابن الأنباري، ج1 ص188-189.

[5]- ينظر الخصائص لابن جني، ج3ص302 والمفصل في تاريخ النحو العربي،ص150.

[6]- الفهرست لابن النديم، ص195.

[7]- ينظر الكتاب لسيبويه، ج3 ص313.

[8]- الفهرست لابن النديم، ص196-197.

بَطَلَ النحوُ جميعاً كلُّهُ غيرَ ما أحدثَ عيسى بنُ عمر

ذاك إكمالٌ، وهذا جامعٌ فهما للناسِ شمسٌ وقمَر

نقل عن عيسى بن عمر رأي في قول الفرزدق:

ألمْ تَرَني عاهدتُ ربِّي، وإنَّني لَبيْنَ رِتاجٍ قائماً ومَقامِ

على حلْفةٍ لا أشتِمُ الدهرَ مُسلماً ولا خارجاً من فِيَّ زورُ كلامِ

ذكر سيبويه أنه أراد: ولا يخرج فيما أستقبلُ، كأنما قيل: ولا يخرجُ خروجاً، ثم قال: وإلى هذا الوجه كان يذهبُ عيسى بن عمر[9].

وذكر سيبويه في موضعٍ آخر زعْمَ عيسى بن عمر أنهم أنشدوا هذا البيت بالنصب[10]:

هل أنت باعثُ دينارٍ لحاجتِنا أو عبْدَ ربِّ أخَا عَوْنِ بنِ مِخراقِ

والمراد أن نصب(عبدَ) محمول على موضع (دينار)؛ كأنما التقدير: هل تبعثُ ديناراً أو عبدَ ربِّ أخا عون..

3- يونس بن حبيب:(تـ 183هـ): كان معاصرا للخليل وسيبويه. وله من الكتب معاني القرآن، وكتاب اللغات[11].

أوَّل الرفع- في قراءة من قرأ(رسوله) بالرفع- في قوله تعالى﴿ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ المُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ على الابتداء[12]. وكذلك وجَّهَ قراءة الرفع في قوله تعالى﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ **يُرْسِلُ** رَسُولاً ﴾؛ كأنه قيل: أو هو يرسلُ رَسُولاً[13].

وأمَّا قول الأعشى:

---

[9] - الكتاب، ج1 ص346. قال المبرِّد:" يريدُ: عاهدتُ ربِّي على أمور، وأنا في هاتين الحالتين لا شاتماً ولا خارجاً من فِيَّ مكروه." المقتضب، ج2ص270. وينظر كتاب الجمل للخليل، ص69.

[10]- نفسه، ج171.

[11]- الفهرست، ص198-199.

[12]- ينظر الكتاب، ج1ص238.

[13]- ينظر الكتاب، ج3ص51.

إنْ تَرْكَبوا فركوبُ الخيلِ عادتُنا أَو تنزِلون فإنَّا معشرٌ نُزُلُ

فقال سيبويه بشأنه مستحسناً :" وأما يونس فقال: أرفعه على الابتداء، كأنه قال: أو أنتم نازلون"[14].

وحينما أنشد الفرزدق قوله:

مُستقبلين شمالَ الشامِ تَضربنا بحاصبٍ كنديفِ القطنِ منثورِ

على عمائمنا تلقى وأرحُلِنا على زواحفَ تُزجى مُخُّها ريرِ

قال ابن سلام: " قال ابن أبي إسحاق: أسأت، إنما هي (رِيرُ)، وكذلك قياس النحو في هذا الموضع، وقال يونس: والذي قال جائز حسنٌ"[15]. فانظر كيف استحسن يونس صنيع الفرزدق وأجازه. وقد نقل سيبويه رأي شيخيه يونس والخليل بخصوص الضرورة الشعرية فقال:" وليس شيء يضطرُّون إليه إلا وهم يحاولون به وجها. وما يجوز في الشعر أكثر من أن أذكره لك ههنا"[16].

ومن هنا فيونس يلتمس وجها لقول الفرزدق" وكأني به يذهب إلى أن أصل التركيب: على زواحفَ ريرٍ مخُّها، كما ترى في هذا البيت:

ما للجِمالِ مشيُها وئيدا أجَنْدلاً يحملن أم حديدا

...أي ما للجمال وئيداً مشيُها. وحين قال يونس: جائز حسن، يعني أن لغة الشعر تجيز مثل هذه الظاهرة"[17]. وهذا يدل على أن يونس كان مرِناً في تعامله مع واقع اللغة ومقتضياتها وضروراتها؛ ولذلك كان الفرزدق يقول: علينا أن نقول، وعليكم أن تفسِّروا وتتأوَّلوا.

---

[14]– الكتاب، ج3 ص51. وينظر كتاب الجمل للخليل، ص193.

[15]– طبقات فحول الشعراء، ج1 ص17.

[16]– الكتاب،ج1ص32.

[17]- المفصل في تاريخ النحو العربي، ص224. مشيُها عند الكوفيين فاعلٌ مقدَّم لـ (وئيدا)؛ لأنهم يرون أن الفعل قد يسبق عامله. ويرى البصريون أن (مشيُها) مبتدأ، و(وئيدا) حال، ويقدرون جملة(يظهر وئيدا) خبرًا للمبتدأ، ينظر أوضح المسالك لابن هشام ج1ص338.

4- الخليل بن أحمد الفراهيدي:(تـ 170هـ): قال عنه ابن النديم أنه " كان غاية في استخراج مسائل النحو، وتصحيح القياس، وهو أول من استخرج العروض وخص به أشعار العرب. وكان من الزُّهاد في الدنيا المنقطعين إلى العلم"[18].

ومن صور التأويل عنده ما عبَّر عنه بمصطلح التوهُّم في رواية من جرَّ(سابق)، في قول زهير:

بدا لي أنّي لستُ مُدركَ ما مضى ولا سابقٍ شيئاً إذا كان جائيَا

فـ(سابقٍ) معطوفة على خبر ليس (مدركَ)؛ وإنما جُرَّت على توهم من الشاعر، في أثناء استغراقه في عملية الإبداع، أنه قد أدخل الباء الزائدة على خبر ليس، فبنى كلامه على هذا الوهم، ولم يعطف على ما استعمله[19].

وأجاز نصب(جسمَ)و(أحلامَ) على الذم والشتم في قول حسان:

لا بأس بالقوم من طولٍ ومن عظمٍ جسمُ البغالِ وأحلامُ العصافيرِ

قال سيبويه:" فلم يرد أن يجعله شتما، ولكنه أراد أن يعدِّد صفاتهم ويفسرها، فكأنه قال: أما أجسامُهم فكذا وأما أحلامُهم فكذا. **وقال الخليل رحمه الله: لو جعله شتماً فنصبه على الفعل كان جائزا**"[20].

ومن ذلك قول امرئ القيس:

فقلتُ له لا تبك عينُكَ إنَّما نحاولُ ملكاً أو نموتَ فنُعذرا

قال الخليل:" فإنه نصب على إضمار (أن)؛ يعني أو أن نموتَ. ونصب (نعذرَ) لأنه نسقٌ بالفاء على(أن نموتَ)"[21].

وأما قول الشاعر:

فتًى في سبيلِ الله أصفرُ وجهُهُ ووجهُك ممَّا في القوارير أصفرا

---

[18]- الفهرست، ص199-200.

[19]- ينظر الكتاب، ج3ص51 والمفصل في تاريخ النحو العربي، ص291.

[20]- الكتاب، ج2ص74.

[21]- كتاب الجمل للخليل، ص113.

فكأنه أراد: كان أصفرا[22].

وأوَّلَ النصب على أنه من باب إضمار كان في قول ليلى الأخيلية:

لا تَقْرَبنَّ، الدهرَ، آلَ مُطرِّفٍ إنْ ظالماً في الناسِ أو مظلوماً

قال:" يريد: إن كان الرجلُ في الناس ظالماً أو مظلوماً. وقال آخر:

فأحضرتُ عذري عليه الأميـ ـرُ، إن عاذراً أو تاركاً

وقد يجوز الرفعُ على: إن يكنْ في فعلي خيرٌ أو شرٌّ"[23].

وأما قول الشاعر:

فأصبحَ، في حيثُ التقينا شريدُهُم قتيلٌ ومكتوفُ اليدين ومُزعَفُ

فهو على معنى" فأصبحَ شريدُهم، في حيث التقينا، منهم قتيلٌ ومنهم مكتوف اليدين ومنهم مزعفُ. ومثله:

فلا تجعلي ضَيْفَيَّ ضيفٌ مُقرَّبٌ وآخرُ معزولٌ عن البيتِ جانبُ

كأنه قال لا تجعلي ضيفَيَّ أحدهما ضيفٌ مُقرَّبٌ، وآخرُ معزولٌ"[24].

وعلَّل الرفع في قول الأخطل:

وقال رائدُهم: أَرْسُوا، نُزاولُها فكلُّ حَتْفِ امرئٍ يَجري بمقدارِ

بالابتداء، فقال:" فالمعنى إنَّا نزاولها. لولا ذلك لجَزم...وقال آخر:

كونوا كمن آسى أخاه، بنفسهِ نعيشُ جميعاً، أو نموتُ كِلانا

رفع على معنى: إنا نعيش جميعاً. لولا ذلك لجزم"[25].

---

[22]- نفسه، ص112.

[23]- نفسه، ص111-112.

[24]- نفسهُ، ص122.

[25]- نفسه، ص192-193.

وعلَّل نصب المنادى في قول النابغة:

كِلِيني لهمٍّ يا أُميمةَ ناصبِ وليلٍ أقاسيهِ بطيءِ الكواكبِ

على إرادة الترخيم، قال:" فنصب (أميمةَ)؛ لأنه أراد الترخيم، فترك الاسم على أصله، وأخرَجَ على التمام، ونصب على نية الترخيم" [26].

ومن الحمل على المعنى قول الشاعر:

هل أنت باعثُ دينارٍ لحاجتِنا أو عبدَ ربٍّ أخا عونِ بنِ مِخراقِ

قال:" حمله على المعنى، أراد: هل أنت باعثٌ ديناراً؟ فحذف التنوين وخفضَ الدينار، ونصب (عبدَ) بالعطف على موضعه، كأنه نوى التنوين" [27].

[26]– كتاب الجمل، ص84.

[27]– نفسه، ص99.